كرامات عقبة بن نافع الفهري

أ. د. محمد بن عميرة
قسم التاريخ - جامعة
الجزائر

احتفظت لنا مصادر التاريخ الوسيط بمعلومات هامة عن تاريخ قادة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ومن الذين كان لهم الحظ الأوفر منهم، في هذا المجال، عقبة بن نافع الفهري الذي حظي باهتمام خاص، فنال نصيب الأسد من تلك المعلومات التي غطّت مختلف جوانب نشاطه العسكري والسياسي، وراحت تسجل عنه أمورا اعتقدت أنها كانت سرّ النجاحات التي حققها أثناء تأديته مهامه، واصطُلح على تسميتها كرامات عقبة بن نافع.

وأوّل تلك الكرامات، ما أشار إليه ابن عبد الحكم (ت214هـ/830م)[1] من أن عقبة خرج في حملة إلى المغرب سنة 46هـ/67-66م وتوقف بمغمداش من سُرت حيث أدركه الشتاء، وكان مضعفا، وهناك علم أن أهل ودّان قد نقضوا عهدهم ومنعوا ما كان بُسر بن أبي أرطأة فرض عليهم عندما أرسله عمرو بن العاص، وهو محاصر لمدينة طرابلس، سنة (22/43-م 642 أو 23/44-643م)[2].

فترك جيشه بعين المكان وسار بنفسه على رأس" أربعمائة فارس وأربعمائة بعير وثماني مائة قربة، حتى قدم ودّان فافتحها... واستخرج منهم ما كان بُسر فرضه عليهم ثلاثمائة رأس وستين رأسا"[3] من العبيد.

ثم قصد مدينة جرمة، عاصمة منطقة فزّان، فوصلها بعد ثمانية أيام ودعا أهلها "إلى الإسلام فأجابوا... وفرض عليهم ثلاثمائة عبد وستين عبدًا..."[4].

ولما فتح جميع قصور فزّان وانتهى إلى أقصاها توجه إلى خَاوار، وهي قصبة كوّار وكانت عبارة عن" قصر عظيم على رأس المفازة في وعورة على ظهر جبل... فسار إليهم خمس عشرة ليلة، فلما انتهى إليها تحصنوا فحاصرهم شهرا فلم يستطع لهم شيئا، فمضى أمامه على قصور كوّار فافتتحها حتى انتهى إلى أقصاها وفيه ملكها... وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستين عبدًا..."[5].

وانصرف، بعد ذلك راجعا، ومر بقصر خَاوار، دون أن يعترضه أحد وواصل طريقه مدّة ثلاثة أيام حيث أقام" بمكان اسمه اليوم، (أي في عهد ابن عبد الحكم) ماء فرس، ولم يكن به ماء فأصابهم (أي عقبة بن نافع وأصحابه) عطش شديد أشفى منه عقبة وأصحابه على الموت، فصلى عقبة ركعتين ودعا الله، وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض حتى كشف عن صفاة فانفجر منها الماء

فجعل الفرس يمصّ ذلك الماء فأبصره عقبة فنادى في الناس أن احتفروا فحفروا سبعين حسيا فشربوا واستقوا[6].

وقد نقل أبو عبيد البكري (ت. 487هـ/1094م) هذه المعلومات عن ابن عبد الحكم، كما يعترف هو نفسه بذلك، ولم يغير منها إلاّ أمورا بسيطة، أهمها : أن انطلاق هذه الحملة كان من " غَدامس من سُرت"[7] وليس من مغمداس التي يذكر في مكان آخر أنها صنم قائم على شاطئ البحر حوله أصنام وبه قصر بناه الأعرابي عامل سُرت لبني عبيد الله وتقع على بعد مرحلة واحدة من كل من سُرت ومن قصور حسّان[8].

ويطلق البكري تسمية جاوان على ما اسماه ابن عبد الحكم قبله خاوار أي عاصمة كوار[9].

وفي وصفه للطريق الرّابط بين وهران والقيروان، مرورا ببلد قسطيلية، يذكر البكري أن المسافر من وهران يمر بقرية تانسالمت الواقعة في طرف جبل جَيْدَرْ ثم بسوق جراوة ثم بقصر ابن سِنان إلى مدينة العلويّين الواقعة على نهر كبير فبنهر سيسي بن دمّر " فأحساء عقبة بن نافع القرشي، وهي آبار كثيرة مبنية بخشب العرعار، تعرف بآبار العسكر، يريدون عسكر عقبة، ويُسمى بالبربرية أرسان ثم تمشي في مفاور... ثلاث مراحل أو أربعا إلى ساقية ابن خزر، يسمّونها أزمَّرين عليها قصر خراب... إلى. .. بنطيوس وهي ثلاث مدن يقرب بعضها من بعض... إحداها. .. بغربها نهر جار ينحدر

إليها من ناحية الجوف (الجنوب) وهذا النهر يسقى الثلاث المدن. .. والثلاث المدن في سهلة عريضة أريضة، عليها كلها أسوار وخنادق، وبغربيها صحراء بنطيوس تسقى بثُلُث النهر المذكور... وبقرب منها قرى كثيرة، وبجوفي بنطيوس طولقة وهي ثلاث مدن كلها عليها أسوار طوب وخنادق وحولها أنهار... ثم من بنطيوس إلى مدينة بسكرة... ومنها إلى مدينة تهوذا وتعرف بمدينة السحر.. وبها... نهر ينصّب في جوفيها من جبل أوراس..."[10].

والغريب في الأمر هنا أن البكري الذي ينفرد بتزويدنا بهذه المعلومات الواردة في شأن أحساء عقبة بن نافع، لم يحاول الربط بينها وبين المعلومات التي نقلها عن ابن عبد الحكم في موضوع" ماء الفرس" أو "ما فرس"، فهل يتعلق الأمر بمكانين مختلفين في جهتين متباعدتين عن بعضهما بعض ؟

وقد ورد بكتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، لصاحبيه الدبّاغ (ت 605-696هـ) وابن الناجي التنوخي (ت. 839هـ)، عند تعرضهما للحديث عن كرامات عقبة بن نافع، أن ابن عبد الحكم روى" أن عقبة بن نافع أصابه في بعض مغازيه بالمغرب عطش شديد هو وأصحابه، أشرفوا منه على الموت، فصلى عقبة [ركعتين] ودعا الله..."[11] إلخ...

ويلاحظ أن ناقل رواية ابن عبد الحكم حذف منها هنا ما يتعلق بتحديد مكان " ماء الفرس" وعوضه بعبارة" في بعض مغازيه

بالمغرب" وحاول ملء فراغ ذلك الحذف بقوله " ولما وُلّيْتُ قضاء تبسة وجدتهم يقولون في بركة : هي بِرْكَةُ فرس، قرب بلد جَسْوَة من قرى تبسّة، فلعلها هي"[12].

ويلخص ابن أبي دينار القيرواني (ت. أواخر ق. 11هـ/ 17م) كلام ابن عبد الحكم عن غزوات عقبة بقوله" ولما غزا فزان.... وقصور كوّار... وهناك أدركه هو وأصحابه العطش فصلّ ركعتين وسأل الله سبحانه وتعالى الماء فجعل فرسه يبحث برجليه حتى مطلع الماء وهو الذي يقال له عين الفرس إلى زمننا هذا"[13].

ويتفق كل من عزّ الدين ابن الأثير (ت.630هـ/1232- 1233م) النويري (عاش في ق.8هـ/ 14م) في القول بأن ما أصاب عقبة وأصحابه من عطش كان في ولايته الثانية على بلاد المغرب والتي بدأت سنة 62هـ/ 681-682م) عندما قام فيها بحملته الشهيرة على نواحيها الغربية عن طريق باغاية فلميس فبلاد الزاب فتاهرت (أو تيهرت) فطنجة فالسوس الأدنى ثم السوس الأقصىَ حيث بلغ البحر المحيط، ومن هناك عاد إلى القيروان، وقد اجتاز، أثناء تلك العودة، " بمكان يعرف اليوم (أي في وقت كل من ابن الأثيرو النويري)، في القرنين 7و8هـ/13-14م) بماء الفرس فنزله ولم يكن به ماء فلحق الناس عطش كثير أشرفوا فيه على الهلاك، فصلى عقبة ركعتين ودعا فبحث فرسٌ له الأرض بيديه فكشف له عن صفاة فانفجر الماء فنادى عقبة في الناس فحفروا أحساء كثيرة وشربوا فسمي ماء الفرس"[14].

وما يلفت الانتباه، عند المقارنة بين هذه الرواية الأخيرة ورواية ابن عبد الحكم، أن مضمونهما واحد لكنهما يختلفان في تحديد زمان ومكان وقوع ما تشيران إليه من حادثة، مما يستوجب طرح سؤال بل، عدة أسئلة تتعلق بتحديد موقع ما الفرس.

فهل يقع ماء فرس على اثني عشر يوما من أقصى قصور فزّان، في اتجاه مدينة خاوار أو جاوان، عاصمة كوّار، وعلى ثلاثة أيام من خاوار في اتجاه فزّان، كما يستنتج ذلك من رواية ابن عبد الحكم ؟

وهل ماء فرس هو" أحساء عقبة بن نافع القرشي" الواقعة في الطريق، بين وهران والقيروان، بين نهر سي سي بن دمّر وبين ساقية ابن خزر القريبة من مدن بنطيوس التي تقع شمال مدن طولقة، كما يمكن استنتاجه من وصف البكري للطريق الرابط بين وهران والقيروان ؟

وهل ماء فرس هو بركة فرس الواقع قرب جسوة من قرى تبسة، كما توقع ناقل رواية ابن عبد الحكم في كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ؟

وهل ماء فرس هو ذلك المكان الذي نزل به عقبة وجيشه أثناء عودته من حملته العسكرية ما بين المحيط الأطلسي وبين مدينة طبنة ؟

وربما يكون ذلك في منطقة سيدي داحو، الواقعة بين تلمسان وبين سيدي بلعباس، وبالضبط على الطريق الذي يكون عقبة قد سلكه عند عودته من السوس إلى إفريقية، كما يعتمد البارون دوسلان، مترجم كتاب النويري إلى الفرنسية[15].

وقد تكون تسمية "ماء فرس" أو "ماء الفرس" أطلقت على كل هذه الأماكن مجتمعة بعدما أطلقت في بداية الأمر على واحد معين منها نُسِجَت حوله رواية تعرّض عقبة وأصحابه لعطش شديد واكتشافهم الماء فيه عن طريق الصدفة ولا بد أن يكون هذا المكان غنيا بمياه قريبة من سطح الأرض لدرجة تلفت انتباه الحيوان العطشان كي يحاول أن يروي عطشه منها وللوصول إلى معرفة هذا المكان يتطلب الأمرُ الاستنجاد بباحثين في علم الآثار يصلون إلى كل الأماكن المذكورة وينظرون في الذي يحتمل أن تتوفر فيه الشروط الطبيعية والتاريخية أكثر من غيره فتكون فيه عين فرس التي مرّ بها عقبة بن نافع في بلاد المغرب أثناء قيامه بإحدى حملاته فيها وتكون الأماكن الأخرى إنما سُميت بها من باب التشبيه.

المهم أن تلك كانت أول كرامة سُجّلت لعقبة بن نافع الفهري ببلاد المغرب. ومن كراماته أيضا ما ذكرته المصادر من أنه عندما وصل إفريقية" لم يعجب بالقيروان الذي كان معاوية ابن حديج بناه قبله فركب الناس معه حتى أتى موضع القيروان"[16] وكان واديا"[17] أو ساحل وادٍ[18] "كثير الشجر، كثير القطن تأوى إليه الوحوش والسباع والهوام" أو كان "غيضته ذات طرفاء وشجر، لا يرام من السباع والحيّات والعقارب القتالة" حسب تعبير البلاذري[19] أو أنّه كان" دخْلة مشتبكة، بها من أنواع الحيوان، من السباع والحيات وغير ذلك، حسب تعبير بن الأثير[20].

فلما أمر أصحابه بالشروع في عملية البناء، عبّروا له عن خوفهم من تلك الحيوانات[21]، وكان ابن نافع رجلا صالحا مستجاب الدعوة فدعا ربه ثم نادى : " أيتها الحيات والسباع إنّا أصحاب رسول الله (صلعم) ارحلوا عنا فإنا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه[22] " أو انه نادى بأعلى صوته "يأهل الوادي ارتحلوا رحمكم الله، فإنا نازلون، نادى بذلك ثلاثة (ثلاث) أيام فلم يبق من السباع شيء ولا الوحوش والهوام إلاّ خرج"[23] أو أنه بات على الوادي، هو وأصحابه، وفي الصباح" وقف على رأس الوادي، فقال يأهل الوادي اظعنوا فإنا نازلون، قال ذلك ثلث (ثلاث) مرّات فجعلت الحياة تنساب والعقاب وغيرها مما لا يعرف من الدواب تخرج ذاهبة..."[24]، أو قال : " يا أهل الوادي، اظعنوا فإنا نازلون، وإنا من وجدناه قتلناه"[25] أو أنه" دعا ما كان في الغيضة من الوحوش والهوام، وقال اخرجوا بإذن الله"[26]، أو أنه، قَبْل مناداته هذه، كان يدعو الله (عزوجل) برفقة من كان معه من الصحابة والتابعين، وعددهم خمسة عشر أو ثمانية عشر رجلا، وكانوا يؤمّنون على دعائه إلى أن وقف على السّبخة ووادیها[27].

وبعد ذلك الدعاء، وتلك المخاطبة أخذت الحيوانات، بمختلف أنواعها، في الخروج، من أماكنها : فكانت السباع تحمل أشبالها، والذئاب أجراءها والحيات أولادها والعقارب تدبّ دبيباً، سمعا وطاعة لرب العالمين، ونادى في أصحابه أن يكفوا عنهم حتى يرتحلوا وكان الناس ينظرون إليها[28] "حتى أوجعهم حرّ الشمس"[29] ورأى هذا المشهد " قَبيلٌ كثير من البربر فأسلموا"[30].

وانقرضت هذه الحيوانات، تماما، من القيروان" فبقيت... أربعين سنة لم يُر فيها خشاش ولا هوام"[31] ولا حية ولا عقرب ولا سبع[32] ولو التُمست في تلك المدة" حيّة أو عقرب بألف دينار ما وُجدت"[33] مع الملاحظة أن كلّ المعلومات التي تتفق أغلب المصادر على مضمونها، وتختلف في بعض تفاصيلها، تعتبر هذه ثاني كرامة سُجلت للرجل في بلاد المغرب غير أنّ المتأمل فيما سجّل عنها، من معلومات، يمكنه التساؤل عمّا إذا كان العرب المسلمون آنذاك لا يعرفون أن إضرام النار في الأحراش كان كافيا وحده لقتل بعض تلك الحيات والحيوانات المتوحشة حتى يلجأوا لمخاطبتها، بلغة لا تسمعها ولا تفهمها، وهل كان عقبة يكتفي بالدعاء لحل مثل هذه المشاكل ؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف كان ينتصر على الجيوش القوية، أبمجرد الدعاء ؟ ثم إذا كان يعتمد عليه إلى هذا الحد، فلماذا لم يلجأ إليه في الموقعة التي استشهد فيها مع جميع أصحابه بتهودة ؟

المهم أن المصادر تضيف أن عقبة، بعد خروج تلك الوحوش والحيات، أمر أصحابه بتهيئة المكان المخصّص لبناء المدينة بدءاً بتنقيته، ممّا كان به من أشجار وأحراش، وتخطيط المساكن والمرافق ونقل الناس إليه" من الموضع الذي كان معاوية بن حُديج نزله... وركّز رُمحه، وقال : هذا قيروانكم"[34].

وأول ما اختطه عقبة إلى جانب دار الإمارة[35]، المسجد الأعظم، وبدأ يصلي فيه قبل بنائه وثار جدالٌ بينه وبين الناس في موضوع تحديد قبلته، وطلبوا منه تقويمها، خاصة وأن أهل المغرب، كما قالوا له، يقتادون بها في توجيه قبلة مسجدهم، ثم راحوا يراقبون" مطالع الشتاء والصيف، من النجوم ومشرق الشمس"[36] دون أن يتوصلوا إلى نتيجة.

ولما تأثر عقبة بهذا المشكل؛ دعا الله سبحانه وتعالى أن يُفرّج عنه، فأتاه في مَنامه آتٍ، وطلب منه أن يأخذ اللّواء بين يديه، في الصباح، ويجعله على عاتقه، أو عنقه، وعند سماعه تكبيرا لا يسمعه أحدٌ غيره يتحرك، إلى أن ينقطع عنه، فتكون القبلة والمحراب مكان ذلك الانقطاع. فاستيقظ عقبة من نومه، وهو جزع، وتوضأ وأخذ يصلي في المسجد، ومعه أشراف الناس، وعندما صلى الصبح بأصحابه سمع تكبيرا، ولما تأكد أن أصحابه لم يسمعوه، راح يطبّق الخطة المرسومة له وركّز لواءه في المكان الذي انقطع فيه التكبير قائلا" هذا محرابكم"[37]. أو أن عقبة لما" أراد تمصير القيروان فكر في موضع المسجد منه، فرأى، في منامه كأنّ رجلاً أذّن في الموضع الذي جعل فيه مئذنته، فلمّا أصبح بنى المنابر (المنبر) في موقف الرّجل، ثم بنى المسجد"[38]؛ وسواء تعلق الأمر بوضعية قبلة المسجد ومحرابه أو موقع المسجد نفسه فإن المصادر تتطرق مرّة أخرى إلى كرامة من الكرامات التي نسبتها إليه وهي الثالثة حسب الترتيب الكرونولوجي، ويمكن تفسيرها بنشوب خلاف بين

التقنيين أو المهندسين القائمين بعملية التخطيط حول موقع المسجد، في المدينة أوموقع المحراب في المسجد، لم يحسم أمره سوى تدخل عقبة الشخصي ومما لا شك فيه أن المسألة لم تكن لها علاقة بتحديد قبلة المسجد، طالما كانت هذه العملية ولا تزال بسيطة، مقتصرة على تحديد مطلع الشمس، وفي وسع أي إنسان أن يقوم بها بمفرده، ويبقى الإشكال قائما حول خَلفية نسج الأسطورة التي تتحدّث عن آت في المنام وصوت لا يسمعه سوى عقبة، من بين أصحابه، فهل كان عقبة يحتاج إلى مثل هذه الخوارق أو الأساليب لحسم الخلافات التي تقع بين أصحابه ؟ وهل يمكن إدخال ذلك في مهاراته القيادية ؟

وهناك كرامة رابعة لها علاقة بالتّغيير الذي أحدثه والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري في ولاية إفريقية سنة 55هـ[39] /675م، حيث عيّن على رأسها مولاه أبا المهاجر دينار خلفا لعقبة وأوصاه، حين ولاّه، أن يعزله " أحسن العزل فخالفه"[40] ولم يعمل بوصيته بل " أساء عزله، وأوقره الحديد"[41] أو أنّه "استخفّ به"[42] أو "حبسه وضيّق عليه"[43] أو أساء عزله، وكره أن ينزل الموضع الذي اختط به مدينته، فنزل خارجها "ومضى حتى خلفه بميلين، مما يلي طريق تونس (فيما بعد)، فاختط بها مدينة، وأراد أن يكون له ذكرها، ويفسد عمل عقبة، وأخذ في عمرانها، وأمر الناس أن تُحرق القيروان ويعمّروا مدينته"[44] أو أنه عندما شرع في بناء مدينته، أمر بتخريب مدينة عقبة.

وعندما علم الخليفة معاوية بن أبي سفيان بما حدث بعث إلى أبي المهاجر رسالة يأمره فيها "بتخلية سبيله وإشخاصه إليه، فخرج عقبة حتى أتى قصر الماء، فصلّى ودعا وقال اللّهم لا تمتني حتى تمكّنني من أبي المهاجر دينار بن أمّ دينار"[45] أو أن الخليفة كتب إلى أبي المهاجر" يأمره بتخليته ويعفيه مما صنع من ذلك، فأطلقه... وأرسله برسُل... من قابس، وهو حَنِقٌ على أبي المهاجر فدعا الله، عزوجل، أن يمكّنه منه"[46].

أو أن خروج عقبة إلى المشرق، حدث بعدما تعرّضت مدينته للتخريب[47]. أو أنه خرج بعد عَزْله، وفي الطريق علم بما فعله أبو المهاجر بها" فتوجّه إلى المشرق آسفا على أبي المهاجر ودعا الله عليه أن يمكنه منه"[48]، ولما بلغ أبا المهاجر أن عقبة دعا عنه[49]. قال : "هو عبد لا تُرد دعوته !" ولم يزل... خائفا منه، نادما على ما فعله معه"[50] وبقي الأمر كذلك إلى أن رُد عقبة إلى منصبه[51] على يد الخليفة يزيد بن معاوية سنة 62هـ/ 681-682م. فمضى سريعا في طريقه، لحنقه على أبي المهاجر، حتى وصل إفريقية[52].

فكان أوّل ما أقدم عليه، عند حلوله بمقر ولايته، تقْييد خصمه في الحديد وحبسُه[53] وأخذُ ما كان معه من الأموال، وقدرها مائة ألف دينار[54] ثم أمر بتخريب مدينته "وردّ الناس إلى القيروان". كما جاء في بعض المصادر[55] أو أنه" جدّد [بناء القيروان]وشيّدها، ونقل الناس [إليها]، كما جاء في البعض

الآخر[56]، أي أن الله، في نظر المصادر التي أوردت هذه المعلومات، قد تقبّل من عقبة دعوته فمكنّه من خصمه فانتقم منه.

وما يلاحظ أن ما آلت إليه الأمور هنا هو أمر عادي يمكن أن يحدث لأي شخص في أي زمان ومكان دون أن يكون وقوعه في حاجة إلى دعوات أو كرامات، بدليل أن عقبة بدَلَ مساعي حثيثة من أجل العودة إلى ولايته، كما تؤكد ذلك مختلف المصادر التاريخية.

وهناك كرامة أخرى تتمثل في كون عقبة بن نافع لما عزم، أثناء ولايته الثانية، على " الغزو في سبيل الله[57] اجتمع بأولاده وأخبرهم أنه باع نفسه من الله -عزّوجل- وعزم على جهاد من كفر به، حتى يُقتل فيه أو حتى يلحق بالله! وأنّه غير متأكد من العودة، لأن أمله الموت، في سبيل الله، ثم راح يوصيهم بما أحب[58] أو بالتمسك بالإسلام دينا[59] أو انه أوصاهم بثلاث خصال هي : عدم ملإ صدورهم بالشعر، على حساب القرآن، لأن القرآن دليل على الله- عزّوجل- وأخذُ ما يهتدي به اللبيب وما يدلّهم على مكارم الأخلاق، من كلام العرب، والانتهاء عما وراء ذلك، وعدم التداين ولو اضطروا إلى لباس العباء، لأن الدّيْن ذلّ بالنهار وهمٌّ بالليل، وتركَهُ يؤدي إلى سلامة أقدارهم وأعراضهم وإبقاء الحرمة لهم في الناس ما داموا على قيد الحياة، وعدم تقبل العلم من المغرورين المرخصين كي لا يجهّلوهم دين الله ويفرّقوا بينهم وبينه، ولا يأخذوا دِينَهم إلاّ من أهل الورع والاحتياط، لأن من احتاط سلم ونجا[60]

والعبرة من هذه الكرامة، الخامسة، هي معرفته المُسبقة بنيل شرف الاستشهاد في حملته تلك، مع العلم أن المصادر لم تشر إلى اعتياد عقبة عن مثل هذا التصرف، مع عائلته وأولاده، كلما عزم على الخروج في حملة أو غزوة من غزواته السابقة، كما لم تشر إليه أيضًا إلى تعوّد غيره من قادة فتح المغرب على مثله، ألا تكون تلك المصادر قصدت بحديثها في هذا الموضوع، هذه المرة بالذات، الإشارة إلى واحدة من كراماته، حتى وإن كان الأمر يتعلق بأمر الغيب ؟

ومن كراماته : أنّه قدم مصر وعليها عمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو وجماعة من أصحاب رسول الله- صلعم- فوُضعت بين أيديهم سُفرة فيها طعام، فلمّا تناولوا منه ضربت حِدَاةُ عليها وأخذت عرقا منه، فقال اللّهمّ دقّ عنقها، فأقبلت منقضّة حتى ضَرَبَت بنفسها الأرض فاندقّ عنقها. وسمع عقبة عمرو يترجع فسأله عن السبب فقال : " بلغني أن نفرًا من قريش يخرجون إلى هذا الموضع (أو يغزون إلى هذه الناحية) سيتشهدون جميعا (أو سيستشهدون بها جميعا)، فقال عقبة اللّهم وأنا منهم[61].

ومن تلك الكرامات أيضًا أنّه خرج أيام الخليفة يزيد بن معاوية، على جيش، غازيا إلى بلاد المغرب، فمرّ على عبد الله عمرو وهو بمصر، فقال له عبد الله : يا عقبة لعلك من الجيش الذين يدخلون الجنة برحالهم[62] أو لعلكم الجيش الذي يدخل الجنة[63].

ومنها أن عقبة دخل على عبد الله بن عمرو ولما سأله عن سبب قدومه (مع أنه يحبّ الإمارة) أخبره أن أمير المؤمنين، يزيد، عقد له على جيش إلى إفريقية، فقال له عبد الله" إياك أن تكون لعنة أرامل أهل مصر، فإني لم أزل أسمع أنه سيخرج رجل من قريش في هذا الوجه فيهلك فيه[64] ومن تلك الكرامات كذلك رواية حديث نسب إلى النبي (صلعم)، يَنْهَ عن سكنى تهودة ويصفها بالملعونة وقال : " سوف يقتل بها رجال من أمتي على الجهاد في سبيل الله تعالى، ثوابهم ثواب أهل بدر وأُحُد، وأشْوَقاه إليهم ! منها يحشرون يوم القيامة"[65].

أو قال : بَعْدَ" في سبيل الله" "ثوابهم ثواب أهل بدر وأهل أُحُد، ما بدّلوا حتى ماتوا"[66]، أو"... ثوابهم كثواب أهل بدر وأهل أحُد، والله ما بُدّلوا حتى ماتوا"[67] وكان شهر بن حوشب (راوي الحديث عن النبي- صلعم-) يقول وأشوقاه إليهم، مُضيفاً أنه سأل جماعة من التابعين عن هذه العصابة فأخبروه أن الأمر يتعلق بعقبة وأصحابه، قتلهم البربر والنصارى بمدينة يقال لها تهودة، فمنها يحشرون يوم القيامة وسيوفهم على عواتقهم (أو عوانقهم) حتى يقفوا بين يدي الله تعالى[68].

ومنها ما يتفق عليه كل من أبي عبيد البكري وصاحب كتاب الاستبصار، ويَقضي من أن الخليفة الفاطمي مُعَد إسماعيل (الملقب بالمنصور)، عندما أراد تحريف قبلة مسجد القيروان، وقَلَعَ من محرابه أجرًّا سنة 345هـ/ 956-957م، بَلغَة أن أهل القيروان

يذكرون دعاء عقبة للمدينة وتأسيسه جامعها، وأنهم" يقولون إنّ الله عزّ وجلّ يمنعه منه بدعاء صاحب نبيّه له[69]، إشارة منهم إلى ما ذكرته بعض المصادر من أن عقبة عندما رد الناس إليها، في ولايته الثانية، من مدينة تاكروان التي نقلهم إليها أبو المهاجر في غيابه، ركب بصحبة وجوه عساكره ومَنْ معه من الصحابة والتابعين والعُبّاد، فدار بهم حولها، وهو يدعو لها، قائلا : " يا ربّ، أملأها فقها وعلمًا، وأعمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها [عزّا لدينك]، وذُلاً لمن كفر بك، وأعزّ بها الإسلام... وامنعها من جبابرة الأرض"[70].

وما أن بلغ المنصورَ هذا الكلام حتى" أمر... بنبش قبر عقبة وإحراق رُمته بالنار، وبعث إلى مدينة تهودا لذلك خمس مائة (500) بين فارس وراجل، فلما دنوا من قبره، وحاولوا تنفيذ ما أمرهم له، هبّت ريح عاصفة، ولاحت بروق خاطفة، وقعقعت رعود قاصفة، كادت تهلكهم فانصرفوا ولم يعرضوا له"[71] و"خافوا عقوبة معدّ فتاهوا في صحاري إفريقية حتى سمعوا أنه هلك فحينئذ أتوا إلى أوطانهم معتبرين مستبصرين"[72].

وقد تحدث ابن خلدون، فيما بعد، عن بقاء" أجداث... عقبة وأصحابه بمكانهم ذلك، من أرض الزاب"[73] في عهده (ق8هـ 14م) وأضاف أنه جُعل " على قبره أسنمة ثم جصص واتُّخذ عليه مسجدُ، عُرف باسمه، وهو في عداد المزارات ومظان البركة، بل هو أشرف مزور من الأحداث في بقاع الأرض، لما توفّر فيه من عدد الشهداء، من الصحابة والتابعين..."[74].

وما يلاحظ أن الكرامات الأخيرة التي نسبت لعقبة، باستثناء قصة الحِدَاة التي تدور حول الاستجابة لدعائه، تعالج توقعات استشهاده فهل يعود ذلك إلى كثرة عدد مَن سقط إلى جانبه من الصحابة والتابعين في واقعة تهودة ؟ لكن الذي يدعو إلى الحيرة هو : لماذا اقتصرت تلك التوقعات على عقبة وأصحابه دون غيرهم ؟ مع العلم أن صحابة وأتباعا كثيرين يكونون قد استشهدوا قبل ذلك وبعده، فهل يعني ذلك أنّ كثرة عددهم في المرة الواحدة هو مبرر ذلك ؟.

وقد يتساءل المرء عما يمكن استخلاصه من كل هذه الكرامات المنسوبة لشخصية تاريخية، سياسية وعسكرية، كعقبة بن نافع بالذات وما إذا كان لها كلها أو، على الأقل، لبعضها صدًى في الواقع أم هي مجرّد أساطير نُسجت حوله ؟ وعند تفحصها واحدة واحدة يتبين أنها عبارة عن قصص خيالية، أساطير، نسجها الخيال البشري في وقت أو أوقات غير معروفة.

ولا شك أنها كانت أصداء لظروف صعبة، أزمات سياسية-أمنية حادة، مرت بها المنطقة، واحتاج الناس فيها إلى من ينقذهم ويذكرهم بقوّة عقبة وشجاعته وقدرته على حلّ كل المشاكل، متصوّرين أنه كان يستعين على ذلك بقوة آلهية خارقة، استطاع التغلب بها حتى على الطبيعة كاكتشاف الماء في عز الصحراء وطرد الحيوانات المفترسة والحيات الضارة بمجرد الدعاء واستطاع كذلك التنبؤ بما ستقع من أحداث في المستقبل كتوقعه الموت أثناء قيامه بحملة على المغرب الأقصى.

الهوامش :

(1) فتوح إفريقية والأندلس، الجزائر، 1948، النص العربي، ص60، الترجمة الفرنسية ص61.

(2) نفس المصدر، النص العربي، ص60، الترجمة الفرنسية، ص37.

(3) نفس المصدر، النص العربي، ص60، الترجمة الفرنسية، ص61.

(4) نفس المصدر، ص62، الترجمة الفرنسية، ص63.

(5) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص62، الترجمة الفرنسية، ص63.

(6) نفسه، ص64، الترجمة ص65.

(7) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ط الجزائر 1857، ص13.

(8) نفس المصدر، ص7.

(9) نفس المصدر، ص13.

(10)البكري : المصدر السابق، ص 71-72.

(11) الدبّاغ (أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الأنصاري)، وابن ناجي (أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى التنوخي : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح، ط. الثانية، القاهرة 1388هـ/1968م ج1، ص164-165

(12) الذباغ وابن ناجي : المصدر السابق، ص165.

(13) المؤنس في أخبار إفريقية، وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمّام، تونس 1967، ص30.

(14) قارن، ابن الأثير : الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط. الثانية بيروت 1418هـ/1998، ج3، ص451؛

En-Norweiri : Conquête de l'Afrique septentrionale par les musulmanes, et histoire de ce ...sous les «émirs arabes, dans Ibn Khaldun, hist. des berbers et des ...mus. de l'Afrique, sept, trad. de l'arabe par le Baron de slane, Paris, 1968, t.1, PP, 333-34.

En- Norweiri : Op. cit. P.334, note. (15)

(16) فتوح إفريقييه والأندلس، ص64.

(17) نفسه.

(18) المالكي : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وزهادهم وعبادهم ونساكهم و... نشره حسين مؤنس، القاهرة 1951، ج1، ص7.

(19) كتاب فتوح البلدان : نشره صلاح الدين المنجد، ط القاهرة، ج1، ص269

(20) الكامل في التاريخ، ج.3، ص320.

(21) المالكي : المصدر السابق، ج1، ص7؛ ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ح.س. كولان و. إ. ليفي بروفنسان، ط. بيروت، ج1، ص230

(22) ابن الأثير : المصدر السابق، ج.1، 320، قارن البلاذري : المصدر السابق، ص269، مؤلف مجهول : المصدر السابق، ص4.

(23) ابن عبد الحكم : فتوح، ص64 و66.

(24) نفس المصدر، ص66

(25) المالكي : رياض النفوس، 1، 21، الدباغ وابن ناجي : المصدر السابق، ج1، ص9-10.

(26) مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار نشره. Fagnan E تحت عنوان L'Afrique septentrionale au XIIe= S. de notre ère, Constantine 1900, P.4.

(27) ابن عذاري، البيان، 1، 20؛ المالكي : رياض النفوس، 1، 7.

(28) المالكي : المصدر السابق، 1، 7، ابن عذارى : المصدر السابق، 1 20، قارن ابن الأثير : الكامل، 3، 320، مؤلف مجهول : الاستبصار، ص4، الدباغ وابن ناجي، 1، 9-10.

(29) البيان، 1 20؛ ابن عبد الحكم : فتوح، 66، حسب الدباغ وابن ناجي فإن حرّ الشمس أوجع الحيات وهي تخرج من جحورها، وأن عقبة أقام ثلاثة أيام وهو ينادي بأعلى صوته : يا أهل الوادي، قد أجلناكم ثلاثة أيام (معالم الإيمان، 10، 1) وينقل المالكي عن أبي العرب نفيه للرواية التي تقول إن عقبة بن عامر هو الذي جرى له ذلك لأنه لا يوجد في شيء من مغازي إفريقية أن عقبة بن عامر غزاها أو وُلي عليها (رياض النفوس)، 1، 62؛ قارن. معالم الإيمان، 1، 10).

(30) ابن الأثير : الكامل؛ 3، 320؛ En. Noweiri : Conquête T.1, P, 328

(31) مؤلف مجهول : المصدر السابق، ص4؛ قارن المالكي : رياض النفوس، 1، 21.

(32) ابن عذاري : البيان المغرب، 1، 20، En- Noweiri : Conquête, P. 328

(33) ابن عبد الحكم، فتوح، ص66.

(34) نفسه، ص 66.

(35) ابن عذاري : البيان، 1، 20، 328- 329 En-Noweiri : OP.Cit, PP328-

(36) المالكي : رياض، 1، 7.؛ ابن عذارى : نفس المصدر، 1، 20؛ En- Noweiri : OP.P329

(37) المالكي، نفس المصدر، ص7-8؛ ابن عذاري : نفس المصدر، ص20-21؛ En- Noweiri : OP.Cit.329؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق، ص4.

(38) فتوح البلدان، 1، 271.

(39) ذلك حسب الرواية التي نقلت في معالم الإيمان عن محمد بن يوسف الوراق (الدباغ وابن ناجي : معالم، ج1، ص46-47) وحسب ما يستنتج من سياق كلام ابن الأثير عن تأسيس القيروان وعزل عقبة (الكامل، 3، 320-321)؛ ونفس التاريخ يحدّده كل من النويري (Conquête, P.330) وابن عذاري (البيان، 1، 21) غير أن ابن عبد الحكم يحدّ تاريخ وقوع ذلك التغيير بسنة 51هـ/ويحدّده الواقدي بسنة 62هـ/681-682 (انظر ابن الأثير، نقلا عن الواقدي : الكامل، 3، 321) ويتفق هذا الأخير مع ابن خلدون في القول بأن الذي أحدث هذا التغيير هو يزيد بن معاوية (العبر، 6، 216).

(40) ابن عبد الحكم : فتوح، ص66.

(41) نفسه.

(42) ابن الأثير : الكامل، 3، 21.

(43) المالكي : رياض، 1، 21.

(44) ابن عذاري : البيان، 1، 22، تقع تلك المدينة حسب معالم الإيمان بجَوْ في (شمالي) إفريقية على نحو ميلين (الدباغ وابن الناجي، 1، 47).

(45) ابن عبد الحكم : المصدر السابق، 66 و68.

(46) المالكي : المصدر السابق، 1، 21.

(47) En- Noweiri : OP. Cit.P330.

(48)ابن عذاري : البيان، 1، 22.

(49) ابن عبد الحكم : المصدر السابق، ص68؛ المالكي : المصدر السابق، 1، 21.

(50) ابن عذاري : البيان، 1، 22.

(51) ابن عذاري : البيان، 1، 22-23؛ قارن ابن الأثير : الكامل، 3، 321؛ En- Noweiri

(52) قارن. الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي، تونس 1968، ص39-40؛ ابن عذاري : البيان، 1 23؛ : En- Noweiri Conquête ؛ بالنسبة لابن عبد الحكم فإن هذا الاعتذار ثم أثناء توجه عقبة من إفريقية إلى بلاد الشام (فتوح إفريقية والأندلس، ص68.

(53) الرقيق القيرواني : المصدر السابق، ص40؛ ابن عذاري البيان، 1، 23؛En- Noweiri : Conquête, P331. ؛ ابن الأثير : الكامل، 3، 450.

(54) المالكي : رياض النفوس، 1، 22؛ الدباغ وابن ناجي : معالم، 1، 47.

(55) الرقيق القيرواني : المصدر السابق، ص40؛ ابن عذاري : البيان، 1، 23؛ En- Noweiri : OP : Cit, P.331.

(56) المالكي : المصدر السابق، 1، 22، الدباغ وابن ناجي : المصدر السابق، 1، 47.

(57) الرقيق القيرواني : المصدر السابق، ص40؛ ابن عذاري : البيان، 1، 23.

(58) قارن نفس المصدر، ص40-41؛ البيان، 1، 21؛ المالكي : رياض، 1، 22؛ ابن الأثير : الكامل، 3، 450-451.

(59) En-Noweiri : OP. Cit. P. 331.

(60) المالكي : رياض، 1، 22 ؛ الدباغ وابن ناجي، 1، 48.

(61) البكري : المغرب، ص73؛ مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار، ص67.

(62) ابن عبد الحكم : فتوح، 72؛ البكري : المغرب، 73 ؛الدباغ وابن ناجي : معالم، 55، 1.

(63) مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار، ص63.

(64) ابن عبد الحكم : فتوح، ص74.

(65) المالكي : رياض، 1، 27؛ الدباغ وابن ناجي : معالم، 1، ص 54-55.

(66) البكري : المغرب، ص73.

(67) مؤلف مجهول : المصدر السابق، ص62.

(68) البكري : المغرب، 73؛ مؤلف مجهول : الاستبصار، ص62.

(69) البكري : المغرب، ص72؛ مؤلف مجهول، ص4.

(70) قارن : الرقيق القيرواني : المصدر السابق، ص40؛ ابن عذاري : البيان، 1، ص23.

(71) البكري : المغرب، ص 74؛ كتاب الاستبصار، ص5.

(72) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص5.

(73) العبر، 6، 298.

(74) نفسه.